

هكذا تعرفت إلى القائد التاريخي آرتين مادايان (١٩٥٤) وهكذا تسلّمت منه في عام ١٩٦٩ المسؤولية المالية في الحزب

عندما نكتب عن آرتين مادايان، وهو قد غادرنا عما يقرب من السبعين عاماً من النضال، فإننا نجد أنفسنا، بالضرورة، أمام مهمة الكتابة، ليس فقط عن تاريخ حزب عريق هو الحزب الشيوعي اللبناني (اللبناني-السوري في النشأة) بل عن تاريخ حقبة بكاملها من كفاح شعبنا اللبناني، وكفاح الأمة العربية بأسرها وكفاح الشعب الأرمني أيضاً. بل إن المهمة تكبر عندما نربط بحق بين بدايات كفاح هذا المناضل الشيوعي اللبناني الأرمني الأممي، وبدايات العصر الجديد الذي تحددت سماته بانتصار أول ثورة إشتراكية في التاريخ، هي ثورة أكتوبر. فالأعوام السبعون من حياة مادايان النضالية كانت أعوام انتصار هذه الثورة وأعوام انتشار أفكارها وأعوام تجربتها بالصواب والخطأ فيها، وبالإنجازات والإخفاقات وصولاً إلى المرحلة الجديدة الراهنة التي تتمثل بانتهيار التجربة. والمعروف أن الرفيق آرتين كان من مؤسسي حزب الشعب في عام ١٩٢٥ مع كل من يوسف ابراهيم يزبك وفؤاد الشمالي الذي انتخب أميناً عاماً للحزب. وكان من مفارقات تلك الحقبة من تاريخ الحزب ومن تاريخ الرفيق مادايان أن سلطات الانتداب قد اعتقلته مع الرفيق فؤاد الشمالي ونفتهما إلى جزيرة أرواد وحكمت عليهما بالاعدام مع مجموعة من أبطال الثورة السورية بقيادة سلطان باشا الأطرش. وكان سبب اعتقال الشمالي ومادايان تضامن حزب الشعب مع الثورة السورية الذي اتخذ أشكالاً مختلفة. لكنهما أعيدا من المنفى في مطلع عام ١٩٢٨ بعد أن ألغي قرار إعدامهما. وفور عودتهما قاما بتغيير اسم الحزب من حزب الشعب إلى الحزب الشيوعي بطلب ملح من قبل ممثل الكومنترن في لبنان. ثم ذهب فؤاد الشمالي إلى موسكو لتمثيل الحزب في المؤتمر السادس للكومنترن. ومن مفارقات ذلك التاريخ أيضاً أنه كان للرفيق آرتين في مطالع الثلاثينات دور أساسي في إقصاء فؤاد الشمالي من قيادة الحزب ومن الحزب بتهمة الخيانة. وهي التهمة التي لم تمنع الشمالي من متابعة نشاطه الفكري بإصدار بعض الكتب التي ظل يعلن فيها بإصرار انتماءه إلى الشيوعية غير عابئ بتهمة الخيانة التي وجهت إليه. ويبدو، وهو ما لا أملك معلومات دقيقة عنه، أن لخالد بكداش وللحزب الشيوعي السوفيياتي دور أساسي في إقصاء فؤاد الشمالي من موقعه مرفقاً بتهمة الخيانة للأسباب غير المقنعة التي كانت في أساس تلك التهمة. وقد أعاد الحزب الاعتبار لفؤاد الشمالي في زمن لاحق.

ما أشرت إليه من بعض الوقائع المتصلة بالتاريخ الأول للرفيق مادايان تنمة مختلفة في المراحل اللاحقة من حياته ونشاطه في قيادة الحزب، ممن صاروا يعرفون بالحرس القديم. وكان من ضمنهم إلى جانب الرفاق فرج الله الحلو ونقولا شاوي كل من أرتين مادايان حسن قريطم وصوايا صوايا. ولهذين الرفيقين الأخيرين قصة لا أريد الدخول في تفاصيلها.

تعرفت إلى الرفيق آرتين في دمشق في مطلع عام ١٩٥٤ عندما ذهبت للقاء الرفيقين خالد بكداش وفرج الله الحلو. ثم تابعت علاقتي به في السنوات اللاحقة في المد والجزر وصولاً إلى عام ١٩٦٩، العام الذي تلا انعقاد المؤتمر الثاني للحزب الذي انتخبت فيه من دون إعلان من قبلي نائباً للأمين العام للحزب الرفيق نقولا شاوي. طلب مني يوماً أن أتسلم المسؤولية المالية للحزب من الرفيق آرتين. وقد فوجئت يومها بهزال مالية الحزب وهزال مصادرها وهزال المساعدة التي كان يقدمها لحزبنا الحزب الشيوعي السوفياتي. وقد حاولت يومها أن أعترض على تلك المهمة لكنها فرضت عليّ رغم إرادتي واستسلمت لها. وقمت على امتداد اثني عشر عاماً بتلك المهمة الصعبة التي أحدثت فيها تغييراً جوهرياً في مالية الحزب وفي مصادرها المتعددة بما في ذلك في تأسيس عدد من الشركات الاقتصادية. ولن أدخل هنا في تفاصيل تلك المهمة بالإنجازات فيها وبالإخفاقات.

ويهمني وأنا أتذكر علاقتي بالرفيق آرتين أن أشير إلى واحدة من سماته الأساسية. وهي عمق وصلابة علاقته بالشيوعية في لبنان وبالجانب الأُممي فيها على وجه الخصوص. مضافاً إلى تلك السمة ما تمثل عنده بالجمع الدقيق بين أرمنيته الأصلية ولبنانيته وعرويته.